اللفظ القرآني
(الناحية البلاغية)

تحدثت في الفصل السابق عن اللفظ القرآني من ناحيته اللغوية ، وحديثي في هذا الفصل عنه من ناحيته البلاغية ، وليس هو التتبع والاستقصاء ، ولكنه الأنموذج والمثل .

أما اختيار اللفظ للمعنى اللائق به فهو سر من أسرار إعجاز القرآن الكريم ، وقد بلغ القرآن في ذلك الغاية التي لا يعرف البشر غاية وراءها ، وربما مررت باللفظة القرآنية تخدعك عن نفسك ، فيقع في خاطرك أن غيرها كان أولى بمكانها منها ، فإذا أنعمت النظر ظهر لك – إن كنت من أصحاب الذوق السليم ، ومن ذوي المعرفة بأسرار الكلام – أن ما سبق إلى خاطرك إن هو إلا وهم أوقعك فيه جهلك بمعادن الكلام السري ، وأسباب روعته ، واختلاط الأمر عليك بما يضطرب فيه فكرك كل يوم من الأساليب النازلة ، والعبارات الركيكة ، وبما يطرق سمعك من ألفاظ العامة ، وأشباه العامة .

ومنذ قديم وقع هذا لغيرك ، فاحتاج العلماء أن يبينوا ، وأن يوقفوا الواهمين على ما ذهب عنهم من براعة التعبير ، ودقة اختيار الكلمة ، وشرف اللفظ وسراوته وصلته القوية بمعناه ، وبالمكان الذي وضع فيه . وسأضرب من ذلك أمثلة :

١ – ذكر (ابن الأثير) في (المثل السائر) أن رجلاً متفلسفاً حضر عنده يوماً فجرى ذكر القرآن الكريم ، فأخذ ابن الأثير في وصفه ، وذكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة . فقال الرجل : وأي فصاحة هناك ، وهو يقول: ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ . فهل في لفظة «ضيزي» من الحسن ما يوصف ؟.

وقد أجاب ابن الأثير – بعد أن جهَّله ، وجهل أسلافه من الفلاسفة أمثال الفارابي وابن سينا وأرسطو وأفلاطون بأسرار الكلام – بأن هذه الكلمة لا يسد غيرها مسدها ، وذلك أن فواصل سورة (النجم) على حرف الياء (كما قال) ، فكان لابد أن تجيء اللفظة على هذا الحرف لتلائم أخواتها ، ولو أنه جاء مكانها جائرة أو ظالمة لم يكن النظم كالنظم الأول.

واكتفى ابن الأثير بهذا الجواب ، فكأنه يرى أن مجرد رعاية الفواصل يقتضي العدول عن الفظ الأحسن في النطق إلى ما هو أقل حسناً .

ولا عجب في ذلك ، فابن الأثير عاش في القرن السابع الهجري في الوقت الذي علا فيه سلطان السجع على كل سلطان ، والرجل كاتب بل من كبار الكتاب . ومن مظاهر براعته التي كان يفخر بها حسن تأتيه للسجع ، وجميل اختياره له ، فمن الطبيعي أن يجعل للفواصل ، وهي أخوات الاسجاع ، – بل كان هو يسميها أسجاعاً – هذا السلطان .

لكن العلماء بعده لم يقنعهم هذا الجواب ، وبحثوا عن سر معنوي جعل القرآن الكريم يعدل عن لفظة خفيفة على الألسنة ، جارية في مختلف الأساليب إلى لفظة فيها بعض الثقل ، وقل من يستعملها .

قالوا إن هذه القسمة التي وردت في هذه الآيات قسمة شديدة الجور ، بالغة الشناعة ، واضحة الظلم : ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم : ٢١] . لقد قسموا واختاروا . جعلوا لأنفسهم البنين ، وجعلوا لله البنات : ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف : ١٩] والبنات أخس الجنسين في زعمهم : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل : ٦٢] ، فلما كانت هذه القسمة على هذه الدرجة من القبح لم تكف في تصويرها كلمة جائرة أو ظالمة من الألفاظ الرقيقة العذبة ، واحتاجت إلى كلمة جزلة قوية متينة ، حتى يتلاءم اللفظ والمعنى ، ولم يكن هناك أقوي من كلمة (ضيزى) . وهي تشبه في دلالتها على فظاعة هذه القسمة هذا الاستفهام الإنكاري الشديد ، مع هذه المعانى القوية في قوله تعالى : ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء : ٤٠] .

٢- وقد وهم أناس في قوله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون : ١ - ٤] .

وهموا فقالوا : إن الموضع في الآية الأخيرة لكلمة (مؤدون أو معطون أو مؤتون) لأن هذه الألفاظ المستعملة في الزكاة . يقال : أدَّى فلان زكاة ماله وآتاها وأعطاها أو زكي ماله ، ولا يقال : فعل فلان الزكاة . قالوا : ولا يعرف ذلك في كلام أحد .

وقد أجاب أبو سليمان الخطابي (م ٣٨٨ هـ) بقوله : إن هذه العبارات لا تستوي في مراد هذه الآية ، وإنما تفيد حصول الاسم فقط ، ولا تزيد أكثر من الإخبار عن أدائها حسب ، ومعنى الكلام ومراده المبالغة في أدائها ، والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم ، فيصير أداء الزكاة فعلاً لهم ، مضافاً إليهم ، يُعرفون به ، فهم له فاعلون . وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة ، فهي - إذا - أولى العبارات وأبلغها في هذا المعنى [1] .

٣- وقد عرض الخطَّابي - أيضاً - لقوله تعالى - حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف : ١٧] . وذكر أن من الناس من يقول : إن هذا ليس من أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لأن المختار الفصيح أن يستعمل هنا فعل هو من خصائص السباع ، مثل (افترس) أما الأكل فهو عام ، لا يختص به نوع من السباع دون نوع .

وقد أجاب الخطّابي ، فقال : إن الافتراس معناه في فعل السبع القتل حسب ، وأصل الفرس دق العنق ، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً ، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلاً ولا عظماً ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ،

١- بيان الإعجاز القرآني ص ٤١ (ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن) .

والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى ، فلم يصح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل [1] . قلت : وهو جواب حسن ، ووجيه ، ومقنع لمن تعنت وجهل ، ولفظ الأكل يحتمله ، ولفظ الفرس لا يؤدي المعنى المقصود – كما قال – .

ولكن . أليس قد استعمل الأكل في القرآن الكريم في مواضع دون أن يكون هناك ما يدعو إلى مثل هذا التأويل فيه ؟ بلي .

ففي أوائل سورة يوسف نفسها ، وقبل هذه الآية جاء على لسان يعقوب – عليه السلام ﴿..... إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ ، وجاء على لسان أولاده إجابة لقول أبيهم : ﴿.... لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ وليس خوف يعقوب من أن يأكله الذئب ويأتي عليه ، ولا تطمين أولاده له كان لمجرد أن الذئب يأكله لا يترك منه شيئاً ، بل يكفي في الحالتين أن تتعرض نفس يوسف لقتل الذئب إياه أكله أو لم يأكله .

ولعل أصرح من ذلك في أنه ليس المراد من الأكل الإتيان على كل الأجزاء والأعضاء قوله تعالى في بيان المحرمات من المطعومات : ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة : ٣] ، وفقه الآية والاستثناء يعنيان أن السبع لم يأكل الحيوان كله ، بل أبقي فيه بقية .

فالمتجه أن يكون الجواب (بالمنع) ، وإن صح أن يكون الجواب (بالتسليم) أعني أن الخطابى سلم في جوابه المذكور بأن فعل الأكل – لغة – غير لائق هنا ، ولكنا (نمنع) ذلك ، ونقول إن فعل الأكل استعمل كثيراً مع السباع ، وإن ادعي المعترضون أن هذا (بخلاف الوصف عند أصحاب اللغة ، وأهل المعرفة بها) .

واعتمادنا في هذا الجواب على القرآن الكريم ، واستعمالاته ، وعلي ما ذكره الخطابي نفسه من أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع ، وقد حكى ذلك عن (ابن السِّكِّيت) ، وأورد له شواهد من كلام العرب .

---

١ – المصدر السابق ، ص ٣٧ .

وكما يدقق القرآن الكريم في اختيار اللفظة يدقق في وضعها موضعاً لا ينبو بها ، فقد تكون الكلمة مأنوسة الاستعمال ، عذبة في النطق ، خفيفة على اللسان ، ولكن يعرض لها من سوء الاستعمال ما يغُضُّ من قدرها .

ولكن القرآن الكريم حين يستعملها يحفظ لها ماءها ورونقها ، ويظهر – حينئذ – البون البعيد بين استعمال القرآن لها ، واستعمال من عُرفوا بالفصاحة ، وحسن تصريف الكلام . ومن أمثلة ذلك :

١ – كلمة (مقاعد) أوردها الشريف الرضي ، فذكر معها قرينة أوجبت قبحها ، في قوله يرثي:

أعزز علّي بأن أراك وقد خلا عن جانبيك مقاعد العواد

قال ابن سنان الخفاجي : (فإيراد مقاعد في هذا البيت صحيح ، إلا أنه موافق لما يكره ذِكره ، في مثل هذا الشأن ، لا سيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليهم ، وهم العواد ، ولو انفرد كان الأمر فيه سهلاً ، فأما إضافته إلى ما ذكره ففيها قبح لاخفاء به) [١] .

قال ابن الأثير – بعد أن أورد كلام ابن سنان هذا : وهو مَرضيٌّ ، وواقع موقعه .. وقد جاءت هذه اللفظة المعيبة في الشعر ، في القرآن الكريم ، فجاءت حسنة مرضية ، وهي قوله تعالى : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران : ١٢١] . وكذلك قوله تعالى : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن : ٩] .

وسر الحسن والقبح في هذه اللفظة هو الإضافة ، فهي إذا أضيفت إلى من تصح إضافتها إليهم قبحت ، وإذا أضيفت إلى غير من تصح إضافتها إليهم حسنت ، ولذلك قال ابن الأثير : ولو قال الشاعر بدلاً من مقاعد العواد : مقاعد الزيارة أو ما جرى مجراه لذهب ذلك القبح ، وزالت تلك الهجنة [٢] .

---

١ – سر الفصاحة ص ٩٣ ط صبيح .
٢ – المثل السائر جـ١ ص ١٨٦ ، ط الحلبي .

قلت : ومما أبعدها من الهجنة في الآيتين الكريمتين ما صحبها من كلمة (تبويء) في الآية الأولى ، وكلمة (نقعد) في الآية الثانية ، وكذلك كلمة (المؤمنين) في الآية الأولى ، وكلمة (منها) في الثانية ، فإن (تبوىء المؤمنين) والقعود من السماء يجعل المعني المستكره ذكرهُ بعيداً .

٢ – ومن ذلك كلمة (تؤذي) فقد جاءت نابية قلقة في قول المتنبي :

تلذ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام

مع أن البيت من الأبيات الجميلة ، ومعناه من المعاني الشريفة السِّرية ، ولكن كلمة (نؤذي) آذته ، فنقصت من قدره ، وأخفَّت وزنه ، يدرك ذلك صاحب الذوق السليم ، والفطرة النقية .

ثم نراها جاءت في القرآن الكريم جزلة متينة في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

والسر في حسنها في الآية أنها وُصلت بما بعدها ، أما في البيت فقد جاءت – منقطعة ، هكذا قالوا .

ولكنني ألمح هنا وجهاً آخر من أوجه حسن هذه الكلمة من الآية ، وقبحها في البيت ، فهي في الآية جاءت مع امتداد نفس الكلام ، فهي خبر كان ، وكان خبر لإن ، واسم (إن) (ذلكم) كلمة فيها طول وتنبيه ، فجاءت في أثناء الكلام كالماء الجاري على هينه وانسياب ، أما في البيت فالجملة قصيرة مبتدأ وخبر ، فجاءت العبارة كالتيار المنحدر فيه من البتر والانقطاع ما يأخذ النفس رهبة ، أكثر مما يأخذها روعة وجمالاً وهدوءاً

وللقرآن الكريم استعمالات في بعض الألفاظ انفرد بها :

فهو – مثلاً ، كما يقول الجاحظ – لا يذكر الجوع إلا في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون (السَّغَبَ) ويذكرون

الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر ، وبين ذكر الغيث ، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين ، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعاً ، والجاري على أفواه العامة غير ذلك .

قلت : ومصداق ذلك أن القرآن الكريم لما أراد أن يقول إن الله سبحانه وتعالى خلق سبع أرضين لم يقل هذا اللفظ ، وإنما عدل عنه إلى لفظ آخر : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقد اشتهر أن الرياح في القرآن الكريم تستعمل في الخير ، والريح تستعمل في الشر ، ومن ذلك مثلا قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر : ٢٢] وقوله سبحانه : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٦] ولكن ذلك هو الغالب بدليل قوله تعالى : ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس : ٢٢] وقوله سبحانه : ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ﴾ [الكهف : ٤٥] .

وقد وردت ألفاظ في القرآن الكريم يقول عنها الباحثون أحياناً إنها للتوكيد ، وربما توهم بعض الجاهلين أنها ألفاظ لا حاجة إليها . ولكن النظرة الواعية تبين أن وراء كل لفظة من هذه الألفاظ سراً ، بل أسراراً لمن ينعم النظر ، ويصحبه عونُ الله وتوفيقه .

من ذلك كلمة (فوقهم) في قوله تعالى : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل : ٢٦] وليست كلمة لمجرد التوكيد ، بل إنها لتحقيق المعنى وبيان فظاعته ، وذلك أنه يقال خر عليه السقف ، ولم يكن تحته ، حينئذ ربما نجا الجميع ، أو نجا بعضهم لكن حين يخر عليهم من فوقهم يتمكن منهم كل التمكن فيهلكهم جميعاً ، ولا يجد أحد منهم إلى النجاة سبيلاً .

ومن ذلك كلمة (بطونهم) في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء : ١٠] قد يقول من لا دراية له : أيّ حاجة إلى ذكر البطون ، والأكل إنما يكون فيها ؟

ويؤخذ من أقوال المفسرين أن ذكر البطون يدل على الملء ، أي ملء بطونهم يقال : أكل في بطنه ، وفي بعض بطنه ، وكأنه المتعارف في العبارة الأولى ، أو أن ذكر البطون لتصوير الحالة الشنيعة .

قلت : ويمكن أن يقال : لو قيل إنما يأكلون ناراً لربما توهم أن الأكل لم يصل إلى البطن . وإن ما حدث أن الآكل لاك النار في فمه ثم لفظها ، فلما ذكرت كلمة البطون دلت على أن النار سرت في الجسم من أعلاه إلى أسفله ثم استقرت في البطن حيث ينبثق أوارها إلى جميع الأجزاء .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [النور : ١٥] . وقوله سبحانه : ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ [الأحزاب : ٤] .

ففي الآية الأولى تأكيد بأن قولهم لا اعتداد به ، إذ هو قول مكانه الأفواه ولم يشترك فيه العقل ولا الرويَّة ولا التفكير وفي الآية الثانية تأكيد أن قولهم هذا لا يغير من الحقيقة شيئاً ، فهو لا يتعدى اللسان إلى ما في الفائدة من الحقائق .

ومن ذلك قوله – علت كلمته – : ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

لماذا قيل : عشرة ، ومعلوم أن الثلاثة والسبعة عشرة ؟ ولماذا قيل كاملة ؟

أما عن الأولى فربما توهم أن (الواو) بمعنى أو ، أي أن المطلوب صيام ثلاثة أيام في الحج ، أو سبعة عند رجوع الحاج إلى أهله ، فرفع هذا التوهم بقوله : (تلك عشرة).

أو الواو على أصلها ، ولكنها جاءت هنا للإباحة كقوله : جالس الحسن وابن سيرين قال الزمخشري : ألا ترى أنه لو جالسهما أو أحدهما كان ممتثلاً ، ثم قال : (وأيضاً ففائدة الفذلكة في كل حساب أن يعلم العدد جملة ، كما علم تفصيلاً ليحاط به من جهتين ليتأكد العلم به) .

وأما عن الثاني فالغرض الحث على صيام هذه الأيام ، والتحذير من التهاون في أدائها ، وقيل : ربما ظن أن التفريق ينقص من أجرها ، فجاءت كاملة لتقيد أن أجرها كامل كما لو كانت متوالية ، ونسب الكمال إليها لكمال أجرها .

وقد نقل عن الشيخ محمد عبده هنا وقوله يصلح في كل موضع يظن فيه أن كلمة من كلماته لا حاجة إليها ، نقل قوله : (إن الله تعالى إذا أراد أن يقرر حكماً ، وكان في التعبير المألوف عندهم ما يوهم خلاف المقصود ولو لبعض المخاطبين يأتي بما يؤكد الحكم ، وينفي أدنى وهْم يعرض فيه ، ولذلك وصف كتابه بالمبين وبالتبيان) .

قلت : لكن لابد – في كل موضع – من بيان ما عساه يتوهم ، ثم بيان المعنى الذي أفادته تلك الكلمة .

ثم إن هذا – أيضاً – هو أسلوب العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، يقولون : رأيته بعيني ، وسمعته بأذني ، وأخذته بيدي ، وذقته بلساني .. وهكذا .

ومن عجب أن بعض الألفاظ القرآنية لم تأخذ حظها اللائق بها في الاستعمال ، فربما لا نجد اللفظة منها مستعملة في أساليب البلغاء إلا في النَّدرة والفلتة ، وقد كنت تتبعت هذه الألفاظ في القرآن الكريم ، ووقفت منها على قدر ليس بالكثير ، وهي ألفاظ جميلة رائعة ، تأخذ باللب ، وتأسر أرقي الأذواق ، ولكننا لا نكاد نسمعها أو نقرؤها .

من ذلك – مثلاً – هذه الكلمات :

في النساء (حُوباً ونِحْلة) وفي سورة النساء (حُسبانا) في سورة الكهف (جِثيا ورِكزا) في سورة مريم ، (قطَّنا) في سورة (ص) ، و (الشَّوى – عِزين – يُوفضون) في سورة (المعارج) ، (أمشاج – مزاجُها كافورا) في سورة الإنسان ، (قِدَدا – مُلتَحَدا – صَعَدا) في سور الجن ، (كِفاتا) في المرسلات ، (وَقب) في قوله تعالى : ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ .

وكنت أرد ذلك إلى أن البشر عجزوا أن يستعملوا هذه الألفاظ استعمالاً يحفظ لها قوتها وروعتها ، ولم يستطيعوا أن يساموا القرآن الكريم في قوة الأداء ، وصحة السبك ، وحسن الصياغة ، كما أن الأسماع أفسدها ما يصل إليها في كل لحظة ، من رديء الألفاظ وسفسافها ، فلم تعد قوية على سماع هذه الألفاظ الرائعة .

ثم وقفت على قول الجاحظ : (والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً ، وتدع ما هو أظهر وأكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ، ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذلك المثل السائر) .

فقلت : وهو ذاك .

ولكن ينبغي أن نعلم أن الجاحظ لا يريد بالعامة ما نريده نحن ، وإنما يعني بهم أوساط المتأدبين ، ومن لهم قول وفهم .

وليس من السهل أن يتتبع الباحث لفظاً لفظاً من ألفاظ القرآن الكريم إذا تردد كثيراً ، ويبحثه من كل ملامحه ، لا سيما إذا ضم إلى ذلك البحث عن استعمالاته في كلام العرب .

وسأضرب مثلاً هنا بحرف واحد طال حوله الجدل من اللغويين والنحاة والمفسرين بل والفقهاء أيضاً ، وسأجعله نموذجاً لدراسة كنت أرجو أن أقوي عليها ، ولعل غيري يجد من الوقت والقدرة ما يعينه عليها .

ولو أن باحثاً نهج هذا النهج الذي سرت عليه في الفصل التالي لطالت عليه الطريق ، وللقي أشد من عرق القربة كما يقولون ، ولكن مما لا شك فيه أنه عند الصباح سيحمد القوم السرى [1] .

* * * *

---

١ – الميداني جـ ٤ .